

السفير 17 تشرين الأول 2008

حرب لبنان (١٩٧٥ - ١٩٩٠) « لعبد الرؤوف سنو

بيروت هي الأصل



ابراهيم بيضون

ذات يوم من ربع قرن على الأقل - وكان حديث العهد زميلاً في الجامعة اللبنانية - أطلعتني سنو على بحث، طالباً إبداء رأبي فيه.. ولما التقينا مجدداً، أذكر أنني قلت له: سنكون مؤرخ بيروت، إن لم تكن كذلك الآن»، وكنا لا نزال معاً، أتابعه عن كثب، ويطلعني أحياناً على بعض أعماله قبل نشرها، وفي كل مرة كان يبدو لي أكثر نضجاً، وأوضح منهجاً، وأمتن أسلوباً، بعد ان كانت اللغة تربكه بصورة ما. ولم يكن ذلك ممكناً من دون ذلك الدأب المدهش على العمل، مستغرقاً حتى الغلس في رصد المادة الموضوعية من مصادرها العربية والألمانية والانكليزية، حتى اصبح في ما حققه من أبحاث رهينة، خليفاً لما توقعته في البدايات له. وليست التجربة دائماً مما يُجدي، او بالضرورة لما يذهب الى العمق، فكم من باحثين خانتهم التجربة، ولم تضيف - على الرغم من غزارة الإنتاج - جديداً، او تُكسبهم تميزاً، فكانت آخر أعمالهم كأولها، ركاكة وتسطحاً، واقتباساً عشوائياً ليس فيه ما يستحق عناء القراءة .

ومن طبيعة عبد الرؤوف سنو، أنه يكتب بمعاناة، وهي أدوات المؤرخ، حيث تمتزج الصدفية بالموضوعية في نصه الذي يأتي دافئاً، مسبوكاً في أن، منطلقاً من نقد صارم للوثيقة واعادة تركيبها في ضوء منهج عقلائي، يعتمد السببية مبدأ في اكتناه ما أمكن من الحقيقة التاريخية. كان ذلك شأنه في دراساته السالفة التي عكست في الغالب شخصيته وطريقته ومنهجه، وربما فرادته في اختياراته، أكاديمياً ملتزماً بدوره وموجبته .

وإذا سنو يفاجئنا بتغيير حركة سيره، من البحث الى الموسوعية، ولكن من دون ان تكون الأخيرة، في منحائها الأفقي، منفصلة عن الأول الذي يسير العمق.. أما الموضوع فهو «حرب لبنان ١٩٧٥ - ١٩٩٠»، مندرجاً في دراسة متكاملة عن تلك الحرب ولم تفته شاردة منها، اذ أحاط بكل تفاصيلها، معطيات واسباباً ومقدمات ونتائج، حتى ليتمكن المبالغة في القول، إنه ما من كلمة الا ورصدها في الوثائق والصحف والكتب والمقالات والمؤتمرات والندوات، وكل ما قيل هنا او هناك، غير منحاز الا عندما تمس المسائل جوهر الدور، فما من حياذ مطلق حينئذ بين الوطن والمتأمرين عليه، او بين الشعب الأعزل والقنلة من الصهاينة او من يلوذ بهم لسبب او لآخر.. أولئك الذين اجتاحوا لبنان بمدنه وقراه، وانتهكوا حرمة عاصمته. حتى انتفضت عليهم وأخرجتهم مذعورين أذلاء، قبل ان ينتقموا مع عملائهم، مجزرة مشينة استهدفت المدنيين في مخيمي صبرا وشاتيلا، تلك التي ظلت وصمة عار لمن غاصت اقدامه في الدماء المهذورة عن عبث وحقد لا حدود له في تلك «الليلة الظلماء» .

تندرج الموسوعة في مجلدين، يزيد كلاهما عن الف وثمانئة صفحة، الأول يتناول «مفارقات السياسة والنزاعات المسلحة والتسوية»، والثاني، «التحولات في البنى الاقتصادية والاجتماعية والمعرفية». نحن اذاً أمام موسوعة ليست مما هو مألوف في هذا النمط، فهي تتعدى رصد الاحداثيات وتصنيفها، الى دراسة الظواهر والتوقف عند أسبابها، وصولاً الى مفاربات مهمة، كذلك التي يكتنفها البحث التاريخي عادة في مساره واطروحاته. هذه الحرب، ليست تشبه ما سبقها من صراعات موضعية بين فئة وأخرى، او بين تيار سياسي قومي وآخر محلي، مرتبط بسياسات القوى الدولية، حفاظاً على امتيازاته، وانما كانت حرباً شمولية عصفت بكل لبنان، واتخذ فيها العنصر الفلسطيني دوراً بارزاً، يقابله العنصر الصهيوني بدوره الداعم لما سُمي حينئذ بالقوى الانعزالية، ذلك الذي تتوج باجتياح ١٩٨٢ وأسفر عن اجلاء المنظمات الفلسطينية المسلحة عن لبنان .

كان ذلك في الظاهر والمُعلن عن الحرب التي قيل في تقويمها، انها «حرب الآخرين على أرض لبنان»، في محاولة لنفي العامل الداخلي عنها، مع العلم ان المسألة الفلسطينية. ليست سوى جزء من تراكم متعدد الوجوه، سياسياً واجتماعياً واقتصادياً وثقافياً، وقد كان لا يزال يتفاقم حدة منذ دولة الاستقلال، وأكثر ما يصيب شرائح الفقراء في أحزمة البؤس، القائمة على هامش الدولة المتضعضة في الاساس. يقول سنو في توصيف الحالة اللبنانية عشية الحرب: «اعتُبرت حرب لبنان المختبر التاريخي والاجتماعي والسياسي، لتناقضات المجتمع اللبناني.. وتجلت في النظام السياسي وما يقدمه من مكاسب وفوائد لطائفة على (حساب) أخرى، وحدثت في اطار صراع داخلي بين اللبنانيين أنفسهم حول المسار التاريخي الذي كان على وطنهم ان يأخذ به في مرحلة تاريخية دقيقة أتت في سياق النزاع العربي - الاسرائيلي، وتحول المنظمات الفلسطينية الموجودة على أرضه، الى عامل مؤثر وفاعل في خلق التجاذبات الطائفية بين اللبنانيين، فضلاً عن تقاوم الخلافات بين الأنظمة العربية وتدخلها مع القوى الاقليمية والدولية في الأزمة اللبنانية.»

هذه العوامل، متضافرة، أدت الى انفجار الحرب وتصعيدها بعد زيارة السادات لاسرائيل، وعزله مصر عن القضية العربية، ما جعل لبنان، في موقعه الجغرافي وتكوينه الديموغرافي، أرضية خصبة لتلقي المؤثرات الخارجية والتفاعل معها، وبالتالي ضحية لهذا الموقع الذي ما زال يؤدي ضريبة التداعيات، حتى الآن، في المنطقة. بيد ان المسألة على تعقيداتها، يبقى العامل الداخلي ما رهصت به الحرب، خصوصاً المتعلق بالخلاف على الهوية، والتفاوت الاجتماعي بين فئة تتشبث بامتيازاتها، وأخرى تسعى الى مشاركة أوسع في السلطة. ولم يكن التدخل الخارجي ممكناً، لو حظي المجتمع اللبناني بقدر من التماسك، او انحسرت الفوارق بين فئاته، ونال المحروم فيه ما يرسخ المواطنة في وعيه السياسي والاجتماعي. ولا نجافي الحقيقة اذا قلنا ان كلا الطرفين كان يفقد الى هوية واضحة، فالمترفون والممسكون بزمام السلطة، قدموا الامتيازات على الانتماء، كذلك الذين يشعرون بالغبن لم يجدوا ما يشجعهم على الولاء بحماسة لوطن عاشوا طويلاً على ضفافه. ولم يعد اليوم كالبارحة، فقد اشتبكت المواقف، وثمة من خرج من تاريخه وانتهك المقدس، لتكون له امتيازات جوفاء على حساب وحدة الوطن والشعب والمصير. ودائماً «ما أكثر العبر وأقل الاعتبار» في وطن لا يقوم الا بوحدة أبنائه ومشاركتهم جميعاً في تحديد مساره، فيما الاتكاء على الخارج شر مستطير على الجميع، حتى الحلفاء الأقربون .

تسوية هشة

تستوقف سنو مفارقة في هذا السياق، هي ان الصراع ينتهي دائماً الى تسوية، وهي هشة في النهاية، اذ لا أحد يُحاسب على اخطائه، بما فيها جرائم الحرب والمجازر المروعة في بهيمات الليل ووضوح النهار. واذا حدث - وهو أمر نادر - ان أحداً خضع، لاعتبارات ما، للمحاكمة، او جرّ نفسه، بسلوكه المتطرف إليها، فانه لا يلبث ان يخرج من السجن «بطلاً» يحاكم الآخرين، ويحاول رسم صورة للوطن على «طريقته». هكذا تاريخ لبنان اذاً: حروب وجرائم وتسويات ومواقف انقلابية هزلية لدى محترفي السياسة، ممن يسخرون الوطن لمصالحهم الشخصية، وطوائفهم في كل الخيارات وراءهم، وهم في النتيجة «نخب» لم تغادر قط عصبيتها الراسية في العقول. وقد يكون أبلغ الكلام في هذا السياق، ما عبّر عنه الشاعر الراحل محمود درويش في قوله: «لا أحد يفهم لبنان! لا أصحابه المجازيون ولا صنّاعه، لا بُناته ولا مدمّروه، لا الداخلون اليه ولا الخارجون منه.. لن نفهم لبنان الى الأبد.»

ومع ذلك فإن سنو لا يفقد الأصل بقيامة لبنان، فهو «يستحق» برأيه ان يُعطى فرصة أخرى للحياة، اذ ما تحلى بنوه بالجرأة على نقد الذات ومراجعة التجربة، ونبذوا نوعي التكاذب الاجتماعي والسياسي، وأعلنوا صراحة عن

مواطن الضعف والوهن في تعابشهم الطوائفي، ولم يخفوه بمساحيق تجميل مغشوشة لتعايش طائفي هش يتأرجح بين حين وآخر بين الوفاق والنزاع.. وفي استطاعة لبنان ان ينتقل من حالة التعايش الطائفي الى حالة تعايش وطني، تتجسد فيه قيم الحرية والعدالة والمساءلة والتكافؤ في حقوق المواطنة والتعبير، ويجب ان يكون هذا الأمر هدف الجميع .»

رأي آخر

هذا الوطن الذي يحلم به سنو، كان لا يزال الكيان الصهيوني يتربص به ويحول دون قيامه، سواء عبر التحريض على اشعال الفتنة الطائفية فيه، او عبر العدوان المتكرر على أرضه، لا سيما الجنوب الذي عانى منذ الستينيات أفدح المآسي قتلا وتدميرا وتهجيراً، الى انقطاع جزء منه أكثر من عشرين عاماً عن الدولة التي غابت بدورها عنه .ولكن الدكتور سنو له رأي آخر في هذا الصدد، متسائلاً «إذا كان من الممكن ان تنجح محاولة بناء لبنان جديد يصبح.. واحة للحرية والديموقراطية والعيش الواحد، فيما تغيب شمس الحرية عن محيطه» (ص ٢٧). أهل هذا صحيح، فمثلاً هذا الوطن اذا قام على هذه الصورة، يفضح الأنظمة الملكية وشبه الملكية التي تتكئ على الخارج، ولا تلقي بالا لشعوبها الراضخة للاستبداد. وفي النهاية يبقى لبنان رهين واقع يصعب الافلات منه، والدولة القوية العادلة، دونها عقبات وتناقضات، ولا سبيل اليها الا بالتححرر من الوصاية، لا سيما التي تمارسها الولايات المتحدة الأميركية في زعمها المتكرر بأن لبنان السيادة والحرية والديموقراطية ما تبتغيه، فيما تعمل جهراً في كل حراكها من اصل ترسيخ الأمن الاسرائيلي، باستهداف المقاومة اللبنانية، من دون ان يعينها شيء آخر مما يتردد يومياً في خطابها الملقن، المشجّع على الانقسام. ويجب د. سنو أخيراً على تساؤله السالف، بشيء من التفاؤل، معترفاً بأن الخارج يُفسد الداخل، ولكنه يؤكد ان اللبنانيين لو أمكنهم ان «يتخلوا عن أوهامهم النظرية ويتحلوا بالعقلانية الواقعية»، لما كان صعباً عليهم التوحد «في ظل دولة قوية قادرة على صنع قرارها بنفسها .»

هذه بعض أفكار يطرحها سنو في تأملاته للخروج من رواسب الحرب التي أرخ لها بشتى جوانبها العسكرية والاجتماعية والاقتصادية والتربوية والثقافية متوغلاً في خلفياتها وأسبابها، في سياق منهج علمي تحليلي، مدعم بالوثائق والاحصائيات، الى مقابلات مع شخصيات عاصرت تلك الحرب، واكتمت اسرارها، الى كل ما توفر لهذه الموسوعة من مادة غزيرة، أحسن توظيفها بخبرة المؤرخ وموضوعيته .

من الصعب جداً أن نحيط بعمل على هذا المستوى من التفصيل والدقة في أن، عمل يضع امامك خريطة كاملة لحرب لبنان بكل متآثراتها ومؤثراتها الداخلية والخارجية، بكل ما أفرزته من مأس وكوارث واختراقات للمألوف في المفاهيم السياسية الوطنية والقومية، واصطفافات للطوائف ما يزال يعانيتها الوطن المنكوب حتى اليوم. واللافت في الموسوعة، ليس في رصدها ترصد يوميات الحرب، مدعمة بجدول احصائية مكثفة فحسب، بل في تتبعها للتحويلات الاجتماعية والاقتصادية والثقافية، في دراسة معمقة لانهاية مؤسسات الدولة، وانعكاس ذلك على قطاعي الصناعة والزراعة، ما أدى الى هجرة نسبة عالية من اللبنانيين الى الخارج، بالاضافة الى القطاع التربوي، لا سيما الجامعة اللبنانية التي تعرضت للتفريع وتراجع مستواها الى حد كبير، من دون ان تحظى بما يرد لها اعتبارها، مؤسسة علمية وطنية بعد الطائف .

واذ اصبحت الدولة عاجزة عن القيام بواجباتها ازاء المواطن، في المجال الصحي والاجتماعي، فقد تصدّت المؤسسات الأهلية لهذا الدور، وحملت عبء الاغاثة والطوارئ والدفاع المدني، فضلا عن اقامة مستشفيات ميدانية كانت الحاجة ماسة اليها، خصوصا إبان الغزو الاسرائيلي (١٩٨٢). واذا كان د. سنو قد أسهب، كعادته، في الحديث عن الهيئات الأهلية وأعمالها الجليلة في بلسمه جراحات الوطن، فإنه اختص مؤسسة «عامل» التي بادر الى انشائها الدكتور كامل مهنا، بحديث مطول، هذه المؤسسة التي جاءت ردا على العدوان الاسرائيلي (١٩٧٨)، وما اسفر عنه من مجازر، نالت الخيام نصيبها الوافر منها. لقد وُلدت هذه المؤسسة «جنوبية» بفعل الأمر الواقع المأساوي على الأرض المتاخمة للكيان الصهيوني، ولكنها ما لبثت ان اتخذت سمتها الوطنية في انتشارها على بقع عدة محرومة في لبنان، وذلك تحت شعارها المعروف: «معاً من أجل الوطن والمواطن». يقول د. سنو مقوماً دور «عامل» ورسالتها: حددت المؤسسة أهداف انشائها بتوفير الصحة والتعليم والسكن والغذاء والبيئة السليمة للجميع، وتمكين الفئات المهمشة من المشاركة الفعلية في العملية التنموية، وتشجيع المبادرات المحلية، وإشراك النساء والشباب في الاستراتيجية التنموية للمؤسسة وتعزيز التنسيق مع الهيئات الأهلية، محلياً وإقليمياً وعالمياً .»

هذه الموسوعة مرة أخرى، ليست عملاً توثيقياً أو جمعياً، مما هو مألوف عامة في هذا المجال، ولكنها، بالإضافة إلى ذلك، دراسة شاملة ومعقدة، مبنية على وثائق وإحصائيات وتقارير ندوات ومؤتمرات، وإصدارات حديثة بالعربية والأجنبية، انتظمت في نحو ستين من الصفحات، هذا فضلاً عن فهرس عام للإعلام والمدن والقرى والمؤسسات والمعارك، وكل ما يمت بصلة إلى موضوع الحرب اللبنانية.. إنها بالتأكيد إنجاز فريد ومتقن، تصدى له المؤلف بروح علمية ومنهج متوازن، وربما لا يشوبها سوى أن بيروت كانت غالباً محور الحدث على حساب مناطق أخرى أصابها لعنة الحرب، لا سيما الجنوب الذي شهد بعد إخراج منظمة التحرير من العاصمة، تحولات مهمة، مع بروز مقاومة لبنانية، أسست بعملياتها الجريئة لتحرير شريطه المصادر لاثنتين وعشرين عاماً. فقد اختصرت بيروت في وعية الحرب التي شربت كأسها حتى الثمالة، وما زالت علقماً في قلم سنو، ابن أميرة العواصم - بالإذن من طلال سلمان - التي ظلت عالمة اللبّانني، من دون أن يتوسّل ودّها بكتابات جوفاء، ولكنه، بجهده ومثابرته، بات مؤرخها، منذ توقعات الماضي إلى واقع الحاضر .